إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى أعز صديق وأقرب إنسان إلى قلبي، إلى روح والدي الحبيب (أ.د. محمد رمضان صالح) الذي أفتقده بشدة.

كما أهدي الكتاب إلى من لا تكتمل سعادتي إلا بسعادتها: والدتي الغالية (أ.د. علية محمد عبد الحافظ).

obeikan.com

شكر وتقدير

أود أن أعرب عن امتناني وخالص شكري وتقديري لجميع رسامي الكاريكاتير الذين قابلتهم أو راسلتهم لإتمام هذه الدراسة ولتعاونهم وتشجيعهم ولمساهماتهم الغنية سواء برسومهم أو آرائهم. وأود أن أخص بالذكر كل من الرسام عمرو عكاشة، والراحل رؤوف عياد، ومصطفى حسين، وأحمد طوغان، وجمعة فرحات، وعبد الحليم البرجيني، وجورج بهجوري، وسعد الدين شحاته، وأحمد حجازي، وأحمد عز العرب، والراحل محيى الدين اللباد، وعمرو سليم، وفرج حسن، وأحمد عبد النعيم، وإسماعيل دياب، والراحل ماهر داود، وممدوح طلعت، وناجي كامل، ومحمد حاكم، وشريف عرفه، وهاني شمس، وطه حسين، ومحمد عمر، ونبيل تاج، وعصام حنفي، وتامر يوسف، وسمير عبد الغني، ومحمد حمدي، وعبد العزيز تاج، ومحسن أبو العزم، وحسن المصري.

كما أود أن أشكر كل الرسامين الذين تم الاستعانة برسومهم في هذا الكتاب ولم يتسنى لي مقابلتهم بعد، وأخص بالذكر كل من الرسام محمود، وزكي، ورجائي ونيس، وإيهاب شاكر، ووليد طاهر، وياسر جعيصة، ودعاء العدل، ومحمد مخلوف، وعبد الله، ومحمد أنور، ورمسيس، وأحمد نادي، وطنطاوي، وعفت، وأسامة قاسم، وجلال عمران، وحلمي التوني، وإبراهيم مرزوق، وحسن فداوي، ومصطفى الشيخ، وعمر حسونة. وحسانين، وعمرو فهمي.

كما أود أن أعرب عن تقديري لكل الرسامين الراحلين الذين أمتعونا برسومهم وإبداعاتهم وأخص بالذكر الرسام ألكسندر صاروخان، ومحمد عبد المنعم رخا، وجوان سانتس، ورفقي، وصلاح جاهين، وعبد لسميع، وحسن حاكم، وزهدي العدوي، وبهجت عثمان، وسامي بديوي.

ولأن هذا الكتاب مستمد جزء من مادته من رسالتي للماجستير بالجامعة الأمريكية، فأجدها مناسبة جيدة لأعبر عن شكري وتقديري لوقت ومجهود المشرف على رسالتي وأعضاء لجنة التحكيم: الدكتور رالف برينجر والدكتور كيفين كينان والدكتور عماد شاهين.

مقدمة!

قد تكون الرسوم الكاريكاتورية مجرد مجموعة خطوط على ورق أبيض ولكن وقعها كثيرًا ما يكون أشد قوة من الرصاص أو لسعة الكرباج. فقد خطت لحظة بلحظة ملحمة من المشاعر والأحاسيس التي نبض بها الشارع المصري والعربي، فحاربت الاستعمار وناهضت الهيمنة الغربية وناصرت ممثلين للوطن من أمثال سعد زغلول، وتصدت لقرارات حكومية مثل دستور ٣٠ ونادت في وقت ما بالقومية العربية وناضلت ومازالت من أجل القضية الفلسطينية، وتربصت ومازالت بكل مسؤول فاسد وسلطت الضوء ولا تزال على المساحات المظلمة والقبيحة من حياتنا اليومية في قالب فكاهي ساخر.

وإذا كان هناك تضاؤل لدور مصر الريادي في مجال ما لأسباب اقتصادية أو خلافه، ففن الكاريكاتير بكل فخر لا يزال يتربع على عرش الريادة العربية. فالرسوم الكاريكاتورية، التي تزخر بها الصحف والمجلات في أرشيفات المؤسسات الصحفية وعلى أرفف المكتبات وعلى أرصفة سور الأزبكية، هي توثيق لتاريخ مصر الحديث وشاهد إثبات على أحداثه واتجاهاته وتطوراته في سياق مازال قادرًا على إضحاكنا اليوم كما أضحكنا بالأمس منذ ما يقرب على القرن.

ويعتبر الكاريكاتير من أقدم أشكال الفنون ومن أقدم وسائل التعبير والاتصال. والكاريكاتير الذي نتحدث عنه هو المرادف باللغة الإنجليزية لكلمة cartoon ويتكون من عنصرين أساسيين: الكاريكاتير caricature أو الرسم الذي يحمل قدر من المبالغة و illusion أو النسيج الخيالي أو الوهم. فبينما الكاريكاتير يضيف قدرًا من المبالغة في شكل شخص ما مثلًا، فإن الخيال هو الذي يخلق الحالة التي يوضع فيها هذا الشخص[1]. فهو فن يعتمد على المبالغة والتحريف في الملامح الطبيعية أو في خصائص ومميزات شخص أو حيوان أو جسم ما. وغالبًا ما يكون التحريف في الملامح الرئيسية للشخص، أو يتم الاستعاضة عن الملامح بأشكال الحيوانات أو الطيور أو يتم عقد مقارنة بأفعال الحيوانات.

ويعتقد عدد من الباحثين أن قدماء المصريين هم أول من تنبه إلى هذا الفن الذي حقق مقصدهم في النقد والسخرية والتهكم من النواقص ونقاط الضعف في أسيادهم. واستخدم المصري القديم الحيوانات والرموز البسيطة للتعبير عن رأيه الحقيقي في حكامه.

(١) دان باكر: Dan H. Backer. (1996). Uniting Mugwumps and the Masses: Puck's Role in Gilded Age Politics. M.A Thesis, Department of English. Virginia Univ. Retrieved July 4, 2002, from: http://xroads.virginia.edu/~MA96/PUCK/

فعلى سبيل المثال، وجدت رسومًا (شكل ١) ترجع لأكثر من ٣٠٠٠ عام تصور مجموعة من الخدم يحملون سيدهم من مأدبة لمنزله وهو في حالة سكر، كما وجدت رسومًا أخرى تصور كليوباترا وهي في حالات عديدة من السكر [١].

شكل ١: قدماء المصريين والكاريكاتير!
(صمويل تاور: ١٩٨٢)

وصور المصريون القدماء الحيوانات وهي في أدوار آدمية كوسيلة للسخرية من جانب من جوانب الحياة المصرية. ففي إحدى البرديات الساخرة، تم تصوير اثنين من الحيوانات، أسد وظبية، وهما يجلسان في مواجهة بعضهما البعض يلعبان لعبة "السنت"، مثلهما في ذلك مثل الملك آني وزوجته توتو وهما يلعبان. ويظهر على ملامح وجه الأسد نشوة النصر في إشارة إلى أن الأسد في وضع متقدم. وفي نفس البردية، تقود قطة سربًا من الأوز، تذكرنا بلوحة تعداد الأوز على جدران مقبرة نيبامون. وتظهر القطة مدعمة بثعلب يحمل حقيبة من القماش معلقة على عصا يحملها على كتفه ويرعى قطيعًا من الماعز [٢].

---

(١) صمويل تاور:

Samuel A. Tower. (1982). "Cartoons and lampoons: The art of political satire. New York: Julian Messner."

(٢) توماس جارنت هنري جيمس:

James, T. G. H. (Thomas Garnet Henry). (1985). "Egyptian Painting. London: British Museum Publications Limited"

شكل ٢: أسد وظبية يلعبان الست!
(توماس جيمس، ١٩٨٥)

شكل ٣: قطة تقود سرب من الأوز!
(توماس جيمس، ١٩٨٥)

ازدهار فن الكاريكاتير في مصر يعتبر أمرًا طبيعيًا في الوقت الذي يعشق فيه المصريون النكتة ويقدرون الجيدة منها ويتداولونها. وهذا ليس فقط لأن المصريين يتميزون بحس فكاهي عالٍ، ولكن لأن النكتة تلعب دورًا حيويًا في حياتهم، فهي تعتبر وسيلة آمنة للتعبير عن رفضهم ومعارضتهم وغضبهم تجاه وضع أو شخص ما، كما أنها تساعد على كسر حدة التوتر وتعمل كمتنفسًا لهم من كم الضغوط اليومية التي تحيط بهم. يعتقد الكاتب خالد الكشتاني بأن المصريين من خلال النكت يمارسون حالة من "الهروب" من الأشياء التي قد يصعب عليهم مواجهتها. أما الصحفي والشاعر كامل الشناوي فيرى أن النكت هي ذلك السلاح السري المدمر الذي استخدمه المصريون ضد الغزاة والمحتلين[١]. ووفقًا لوزير الداخلية السابق اللواء حسن أبو باشا، تميل النكت في مصر إلى الزيادة في أوقات الأزمات والتوترات لكسر حدة التوتر وتفريغ شحنة الغضب. ولعل هذا هو السبب وراء قيام أجهزة

(١) خالد كشتاني:
Khalid Kishtainy. (1985). Arab political humor. Great Britain: Quartet Books.

الأمن بمراقبة وتحليل النكت كطريقة لقياس الرأي العام. ويؤكد أبو باشا بأنه كان من الممكن منع اندلاع مظاهرات الخبز في عهد السادات لو كان مجلس الوزراء أخذ تقارير النكت من قبل جهاز أمن الدولة على محمل الجد[1].

ويلعب الكاريكاتير دور النكتة المصورة، فهو بالإضافة لدوره الفكاهي يستخدم كوسيلة لتوعية الرأي العام وجمع المعلومات وإيضاح وتبسيط الظروف الراهنة وتسليط الضوء على المناطق المظلمة في حياتنا اليومية وكشف الحقائق. ومع ارتفاع نسبة الأمية، يصبح الكاريكاتير الواحد الجيد أكثر تأثيرًا من مئات المقالات الرفيعة المستوى والمنمقة.

وظهرت في نهاية القرن التاسع عشر أول صحيفة هزلية وهي "أبو نظارة زرقاء"، التي أسسها يعقوب صنوع في مارس عام ١٨٧٨ والتي كان يكتبها بالعامية المصرية وينشر فيها رسومًا كاريكاتورية تنقد وتسخر من سياسات الخديوي إسماعيل وتحرض ضد الظلم الذي كان يعانيه المصريون في عهده. تشير أغلب المراجع إلى أن صنوع قد عاش بقية حياته في باريس بعد أن تم مصادرة صحيفته، مع استمراره في نشر مطبوعته تحت أسماء أخرى ومنها "رحلات أبو نضارة زرقة" و"أبو صفارة" و"أبو زمارة"، والتي كانت تصل لقرائه عن طريق تهريبها لتوزع داخل مصر.

ظهر بعد ذلك عدد من الصحف والمجلات التي تنشر رسومًا كاريكاتورية مثل "اللطائف المصورة" عام ١٩١٥ و"الكشكول" عام ١٩٢١ و"خيال الظل" عام ١٩٢٤ و"الفكاهة" عام ١٩٢٦ و"الصرخة" عام ١٩٣٠ و"الراديو" عام ١٩٣٤ و"آخر ساعة" عام ١٩٣٤ و"الجمهورية" عام ١٩٥٣ وغيرها، والتي كان بعضها يهادن الاحتلال والقصر والبعض الآخر يقف ضدهما على طول الخط.

وشهد عام ١٩٢٥ ميلاد مجلة "روزاليوسف" التي تعتبر نقطة تحول في تاريخ الصحافة المرسومة في مصر وتعتبر "مدرسة" تخرج منها أكثر الرسامين تأثيرًا في مصر والعالم العربي، وعلى رأسهم الرسام الأرمني الأصل الكسندر صاروخان الذي يعد العلامة الفنية المسجلة "لروز اليوسف" حتى عام ١٩٣٤ قبل انتقاله إلى "آخر ساعة" ومن ثم إلى "أخبار اليوم". كما أصدرت مؤسسة "روزاليوسف" في عام ١٩٥٦، مجلة "صباح الخير" التي أطل من على صفحاتها رواد فن الكاريكاتير المصري الحديث.

ولكن ما هي ملامح الكاريكاتير الذي يستحق وصفه بالسياسي؟ البيئة المصرية لها طبيعة خاصة جدًا حيث امتزجت فيها السياسة بمعظم أشكال الحياة امتزاج الزبد بالطعام

(١) كرم جبر (١٩٩٨)، التقارير الأمنية عن النكتة! ، "روز اليوسف"، ١٩٩٨، عدد ٣٦٤٢.

وانعكس هذا بالتبعية على طبيعة الكاريكاتير السياسي. فليس بالضرورة أن يصور الكاريكاتير الرئيس حسني مبارك أو الرئيس الأمريكي باراك أوباما حتى يكون سياسيًا. فالكاريكاتير الذي يتناول مشاكل الاقتصاد وارتفاع الأسعار وأزمة المواصلات والمرور والبطولات الرياضية ومشاكل التعليم والدروس الخصوصية وسوء رصف الشوارع وحجم وشكل رغيف العيش هو كاريكاتير سياسي.

ويرى الرسام مصطفى حسين بأن الكاريكاتير السياسي هو الذي يبرز أي نقاط ضعف للنظام ويوجه نقد لأي أعمال غير مقبولة للحكومة ويضغط في اتجاه التغييرات المطلوبة[١]. ويعتقد الرسام عبد الحليم البرجيني بأن الكاريكاتير الذي يصور رجل يطلب من الخياط أن يخيط له بنطلون من غير جيوب هو سياسي[٢]. ويرى الرسام عمرو عكاشة بأن الكاريكاتير السياسي هو الكاريكاتير الذى يلخص قضية كبيرة تشغل الرأي العام والرأى المضاد لها فى مشهد بسيط يصل للمتلقى بسرعة ويتفاعل معه[٣].

جزء من مادة هذا الكتاب «الكاريكاتير السياسي» مأخوذ عن دراسة بحثية، حصلت بها على درجة الماجستير في الصحافة والاعلام من الجامعة الأمريكية بالقاهرة والتي تناولت تطور الكاريكاتير السياسي في مصر وأهم الأحداث التي ساهم فيها بدور كبير منذ مطلع القرن العشرين[٤]. شملت هذه الدراسة استبانات ومقابلات شخصية مع عدد من رسامي الكاريكاتير المعاصرين، الذين سجلوا رؤيتهم وانطباعهم عن دور الرسوم الكاريكاتورية في تناول أهم أحداث القرن، كما تحدثوا عن تنبؤاتهم لمستقبل فن الكاريكاتير ودوره في أهم الأحداث السياسية التي ستواجهها مصر. كما شملت الدراسة تحليل لمضمون الرسوم الكاريكاتورية التي رسمت مواكبة للأحداث السياسية التي شغلت الرأي العام والذي تطلب تحليلها الرجوع إلى الصحف والمجلات التي كانت صادرة وقت وقوع الحدث.

---

(١) رانيا صالح:

Rania M.R. Saleh (2007). Political Cartoons in Egypt. International Journal of Comic Art. 9(2), 187-225.

(٢) رانيا صالح، المرجع السابق.

(٣) عمرو عكاشة، مقابلة شخصية، ٢٠١٠.

(٤) رانيا صالح:

Rania Saleh. (2004). Egyptian Political Cartoons: Evolution and Impact As Seen By the Cartoonists Themselves, M.A. Thesis, Department of Journalism and Mass Communication, the American University in Cairo (AUC).

وأحب أن أنوه هنا بأنه لم يكن من السهل الحصول على نسخ للرسوم الكاريكاتورية خاصة في فترات ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، فكثير من الصحف والمجلات وإن توفرت كما في "دار الكتب" مثلًا، كانت بالية أو في حالة لا يسمح بتصويرها وأحيانًا لا يسمح حتى باستعارتها، والتي تستدعي الدعوة إلى ضرورة حفظها إلكترونيًا وبشكل جيد حفاظًا على هذا التراث النفيس من الضياع والاندثار وتسهيلًا على الباحثين.

يتناول الكتاب ملامح الكاريكاتير السياسي المصري منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ في ستة فصول. يضم الفصل الأول أهم الأحداث السياسية التي تناولها الكاريكاتير المصري منذ ثورة عرابي وحتى ثورة ١٩٥٢، الفترة التي شهدت الثورة العرابية ضد الظلم والاستبداد وضد التمييز ضد المصريين، وتصاعد المقاومة الشعبية والحركات الوطنية ضد الاحتلال البريطاني والتي نجحت في إشعال ثورة ١٩١٩ الشعبية على إثر نفي الإنجليز لسعد زغلول ورفاقه، ثم فترة الثلاثينيات التي شهدت مظاهرات ضد إلغاء دستور ٢٣ وضد رئيس الوزراء اسماعيل صدقي وحكومته وحزبه في ظل رقابة صارمة فرضها صدقي على الصحف والمجلات، ثم في فترة الأربعينيات التي شهدت المزيد من سياسات الاحتلال القمعية والتي كان على رأسها حادثة ٤ فبراير، وأخيرًا فترة الخمسينيات التي لعب فيها الكاريكاتير دورًا في التمهيد لثورة ١٩٥٢ والتي بها أسدل الستار عن ١٤٨ عامًا من حكم سلالة محمد علي.

ويتناول الفصل الثاني فترة حكم الرئيس محمد نجيب القصيرة جدًا، وصعود نجم جمال عبد الناصر، وطبيعة الأزمة التي اشتعلت بينهما والتي انتهت بإعفاء نجيب من منصبه من قبل "الضباط الأحرار".

ويناقش الكتاب في الفصل الثالث فترة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر التي اشتعلت فيها روح الانتماء ليس فقط إلى الوطن الأم مصر، بل إلى الوطن الأكبر الوطن العربي تحت دعوة القومية العربية. واتسمت هذه الفترة بسياسات ناصر الاشتراكية المناهضة للإمبريالية الغربية والداعية للوحدة العربية تحت قيادة مصرية والراعية للتنمية الصناعية الداخلية، إلا أنه ولردود فعل لقرارات ناصرية هبت مجموعة من العواصف أثرت بالسلب على عجلة التنمية وعلى الاقتصاد المصري، ومنها قرار تأميم قناة السويس بما يعتبر تحديًا لأقوى إمبراطوريتين في أوروبا والذي أسفر عن عدوان ١٩٥٦، وقرار غلق مضيق تيران أمام السفن الإسرائيلية بما يعتبر تحديًا للقانون الدولي الذي يضمن حرية الملاحة والذي أسفر عن نكسة ١٩٦٧.

ويتناول الفصل الرابع فترة الرئيس الراحل أنور السادات والتي اتسمت بالكثير من المفارقات والمفاجآت السياسية على الصعيدين الداخلي والخارجي، وعلى رأسها نصر أكتوبر ١٩٧٣ ومباحثات السلام مع إسرائيل في كامب ديفيد ١٩٧٨-١٩٧٩ في ظل رفض شعبي وسياسة الانفتاح التي تسببت في ارتفاع الأسعار واندلاع المظاهرات ضد موجة الغلاء وأخيرًا مأساة اغتيال السادات في يوم الاحتفال بيوم النصر.

ويناقش الفصل الخامس فترة الرئيس "السابق" حسني مبارك والتي لم تختلف كثيرًا من حيث القضايا المطروحة عن الفترتين السابقتين خاصة فيما يتعلق بالقضايا الداخلية، وان اتسمت بالتدهور الريادي لمصر واستشراء الفساد في معظم (إن لم يكن جميع) مؤسسات الدولة. ناقش الكتاب على المستوى الخارجي، ازدياد حدة الصراع العربي الإسرائيلي، وغزو الولايات المتحدة للعراق في ظل غياب تأييد دولي وتبعات ذلك من مسلسل حمامات الدم الذي يشهده العراق منذ سقوطه. أما على المستوى الداخلي، فتناول التدهور الاقتصادي واستشراء الفساد وتجمد الحياة السياسية وارتفاع معدلات البطالة وتدهور مستوى التعليم، وغيرها من الأحداث والمستجدات التي ساهمت في رفع حالة الغليان في الشارع المصري، انتهت بثورة الشباب، ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ التي أبهرت العالم، والتي استطاعت أن تخلع رأس النظام مبارك وإن لا يزال أمامها الكثير من التحديات والصعوبات.

ويلقي الفصل السادس الضوء على مواضيع متنوعة ومنها رؤية رسامي الكاريكاتير لمستقبل الكاريكاتير ما بعد ثورة ٢٥ يناير، والرموز الكاريكاتورية المحلية والعربية والدولية وقضية معاداة السامية والمناسبات الكاريكاتورية المتكررة سنويًا والتي لا يمكن تجاهلها.

أتركك الآن عزيزي القارئ مع لمحات من تاريخنا المعاصر والتي تم تناولها من خلال قالب كاريكاتوري فكاهي يضحكنا ويبكينا في نفس الوقت، ولك أن تلاحظ كم المفارقات والأحداث التي تكررت في عدة حقب تاريخية بما فيها يومنا هذا، بما يجعل الكثير من الرسوم قابلة للنشر اليوم، لتتساءل: هل فعلًا يعيد التاريخ نفسه؟ وإذا كانت الإجابة بنعم، فهل يحدث هذا "صدفة"؟